الفصل الثامن

موسوعة البستاني

يقول جاك بيرك في كتابه "شبه الجزيرة العربية"[1] "لقد أظهرت النهضة تدافع المفكرين السوريين للتأقلم مع أوروبا. إذ أعادوا إلى الواجهة مهاراتهم القديمة في اللغات الخاصة بالمنطقة، وبفضل قدرتهم على النقل، فقد نجحوا نجاحاً باهراً في الأدب، والأعمال الموسوعية، وعلم التربية، والصحافة. وكانوا هم وأقرانهم من بعدهم، يهدفون إلى دخول التاريخ العربي من أوسع أبوابه".

في عام ١٨٧٥، أعلن بطرس البستاني رئيس تحرير مجلة "الجنان" وهي دورية تصدر في بيروت، عن نيته في إصدار أول موسوعة عربية. ولقد كان بطرس معروفاً لدى القراء العرب في كل من سوريا ومصر، وكذلك لدى الجاليات الاجنبية في بيروت بأنه مدرس ومترجم وعالم. كما كان معروفاً أيضاً في أوساط المثقفين الأوروبيين. ولكن ربما ساور هؤلاء جميعاً بعض من الشك فيما إذا كان باستطاعته أو باستطاعة أي فرد آخر، أن يوفق في مثل هذه المهمة الصعبة بكل المقاييس؛ خاصة فيما يتعلق بجمع ثم ترتيب ونشر عمل بهذا الحجم. على كل حال، تمّ إنهاء المجلد الأول في عام ١٨٧٦، وصدر تحت عنوان "دائرة المعارف". تبعه بسرعة خمسة مجلدات أخرى بين ذلك التاريخ وعام ١٨٨٢. وحمل المجلد السابع، والذي نُشر في عام ١٨٨٣، نبأ نعي البستاني. قام ابنه سليم، الذي كان يساعده منذ البداية، بمواصلة العمل كمحرر، ولكن جاء نبأ نعيه هو أيضاً في المجلد الثامن الذي صدر في عام ١٨٨٤. ومن ثم أصبح

إيقاع العمل بعد ذلك أكثر بطأ. استطاع اثنان من أبناء البستاني الأصغر سنّاً، وهما نسيب ونجيب، وبمساعدة أحد أفراد العائلة، وهو سليمان البستاني، نشر المجلد التاسع في عام ١٨٨٧. ومن ثمّ، وبعد زمن طويل، جاء المجلد العاشر في عام ١٨٩٨ والمجلد الحادي عشر عام ١٩٠٠؛ ولكنها لم تُنشر في بيروت وإنّما في القاهرة، وطُبعت في مطبعة المجلة الدورية المعروفة جيداً "الهلال". كان المجلد الحادي عشر هو آخر ما صدر، وقد حمل الموسوعة إلى الحرف "ع"، وهو الحرف الثامن عشر من الحروف الثمانية والعشرين في اللغة العربية. كانت المقالة الأخيرة عن السلالة العثمانية الحاكمة، وربما كان ذلك مناسباً، إذ كان هناك صعوبة متزايدة في النشر بحرّية في المناطق التابعة للسلطان عبد الحميد، بالإضافة إلى مشكلات مالية التي أدّت إلى التأخير الطويل، وإلى نقل المشروع من بيروت إلى القاهرة.

جذبت الموسوعة الانتباه منذ البداية، ليس فقط في البلاد العربية وإنما في الغرب كذلك، فقد قام المستشرق إتش. إل. فليشر H.L.Fleischer بمراجعة المجلدات الثلاثة الأولى في "مجلة بلاد المشرق الألمانية" في عام ١٨٨٠.[٢] وتبقى الموسوعة إلى الآن العمل الأكثر اكتمالاً من نوعه في اللغة العربية. وانتشرت حتى إلى ما وراء البلاد العربية، في بلدان أخرى حيث كانت اللغة العربية معروفة بشكل جيد؛ إذ كانت مقالاتها عن التاريخ الإسلامي محل تقدير الإيرانيين الذين يحملون ثقافة دينية تقليدية.[٣]

كيف كان من الممكن لموسوعة عربية من قبيل هذه الشاكلة والتنوع أن تُنشر في وقت مبكر في سبعينيات القرن التاسع عشر، وفي إحدى المقاطعات النائية التابعة للدولة العثمانية؟! لقد ظهرت الموسوعات ذات الطابع الحديث في إنكلترا، وفرنسا، وألمانيا منذ القرن الثامن عشر وما بعد. ولكن بدأت تتم طباعتها في بلدان أخرى بحلول منتصف القرن التاسع عشر. ولم تكن موسوعة "دائرة المعارف" حديثة العهد بالمقارنة مع أول موسوعة روسية كاملة،[٤] كما صدر مجلدها الأول قبل ثلاثة عشر عاماً من

ظهور أول موسوعة تركية، وهي عمل أصغر ومحدود بعنوان "قاموس العالم" لشمس الدين سامي فراشيري.(٥)

يمكننا أن نقدم تفسيرات مختلفة متباينة في الإجابة عن هذا السؤال، وكلها إجابات متداخلة يرتبط بعضها ببعض، يرتبط أولاها بطبيعة بيروت في تلك المرحلة: فقد كانت واحدة من الموانئ التي نمت مع توسع التجارة البحرية مع العالم الخارجي، واتصلت بخدمات منتظمة للسفن مع موانئ في حوض البحر المتوسط وساحل الأطلسي، وهي مقر القنصليات، والنشاطات التبشيرية، والمدارس الدينية، ولطبقة التجار المحليين أو الأجانب الذين كانوا يستوردون البضائع المصنّعة في أوروبا. ولم يكن هناك تبادل في البضائع فحسب؛ بل كانت السفن تجلب الكتب والصحف من أوروبا وأمريكا؛ كما جعل التلغراف، والذي وصل إلى بيروت في ستينيات القرن التاسع عشر، أخبارَ العالمِ معروفة خلال ساعات. وكان القناصلة، والتجار، والمبشرون، والمعلمون بمثابة قنوات تتدفق من خلالها المعرفة ونماذج تُحتذى لنمط جديد من الحياة.

أطلق فليشر على بيروت في أثناء مراجعته النقدية للموسوعة اسم عالم التجارة الرئيسي لسوريا، واقتبس كلمات جوته Goethe :

الشرق والغرب غير قابلين للفصل.(٦)

كانت هناك حاجة لوجود وسطاء من أجل الاستمرار بعمليات السوق، ولجلب الشرق والغرب بعضهما مع بعض، فقد كان المسيحيون اللبنانيون مناسبين للاضطلاع بهذه المهمة، تماماً كما كان اليونانيون والأرمن في أماكن أخرى من الدولة العثمانية. وقد كان هناك أفراد ينتمون إلى الكنائس المارونية والبابوية، على وجه الخصوص، معتادين منذ زمن بعيد على التعامل مع الأوربيين بصفة قساوسة، أو تجار، أو موظفين لدى القناصلة أو الشركات التجارية، وكان بعضهم على معرفة باللغتين اللاتينية والإيطالية عن طريق المدارس التبشيرية والمعاهد الرومانية. وقد بدؤوا في ذلك الوقت بتعلم اللغة

الفرنسية أو الإنجليزية في المدارس التبشيرية الجديدة، ووجدوا مجالاً جديداً للعمل كمدرسين، ومترجمين، ومسؤولين قنصليين. وبحلول الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر كان مجال نشاطهم في حالة توسع. ولم يشرحوا لغتهم ويقدموا مجتمعهم للأجانب فحسب؛ بل كمدرسين وصحفيين، كانوا قد بدؤوا بشرح العالم الجديد المتعلق بأوروبا وأمريكا للعدد المتزايد من هؤلاء الذين كان بإمكانهم قراءة العربية.

كان بطرس البستاني واحداً من مجموعة الوسطاء هذه، وذلك كقدوة وكقائد.[٧] وكان قد ولد لعائلة مارونية في جنوب لبنان، ودرس في المدرسة المارونية في عين ورقة، وتعلّم هناك اللاتينية والإيطالية والسريانية بالإضافة إلى اللغة العربية. جاء اتصاله الأول مع العالم المتحدث باللغة الإنجليزية في عام ١٨٤٠ عندما حطّت القوات البريطانية في بيروت كجزء من الحملة التي أُرسلت لإجبار محمد علي على التخلي عن سوريا. وبدأ بعد ذلك مباشرة بالعمل لصالح المبشرين الأمريكيين البروتستانت، وذلك بوصفه مدرساً في مدارسهم، ومدرساً خصوصياً للغة العربية، ومترجماً ومشاركاً في منشوراتهم؛ وقاموا بتعليمه الإنكليزية، وأصبح بروتستانتياً. وساعد المبشرين، لبضع سنوات، في ترجمتهم الجديدة للكتاب المقدس، وكان قد درس اليونانية والعبرية لهذا الغرض. ويبدو أنه، في لحظة ما، كان قد ابتعد عن تأثير المبشرين. فقد عمل مترجماً لقنصلية الولايات المتحدة لفترة من الزمن، وافتتح مدرسة باسم ذي مغزى، وهي "المدرسة الوطنية"؛ والتي كادت أن تصبح مدرسة لجميع الطوائف، وهي تهدف إلى تعليم المحبة "للوطن" ولمعرفة اللغة العربية.

جاءت بعد ذلك مرحلة مشاريعه العلمية الضخمة: فقد ألف معجماً عربياً جديداً هو "محيط المحيط"، وأصدر مجلة دورية ثقافية باسم "الجنان".[٨] وكانت المجلات الدورية والصحف من هذا النوع ظاهرة جديدة؛ إذ استجابت لحاجة الجمهور المتعلم لمادة تثقيفية ومفيدة، وفعلت ذلك بطريقة جديدة، وذلك عن طريق إصدارات تظهر في فترات منتظمة للمشتركين. وكانت الموسوعة ترسل في أجزاء على نحو دوري للمشتركين، وكانت تهدف إلى إعطاء نظرة شاملة منظمة للمعرفة.

أصبح البستاني، وهو محاط بالأبناء والتلاميذ والمتعاونين، مركزاً لما يمكن أن يُسمّى أهل الفكر المعاصرين الأوائل في العالم العربي: وهي جماعة متنقلة اجتماعياً مكرسة للمناقشة ولانتشار الأفكار، وماهرة في فنون التواصل الشفوي، ومستعدة للتحقق مما هو موجود وما هو مقبول سابقاً. كان إنكاره للكنيسة المارونية وقبوله للبروتستانتية الخطوة الأولى في هذا الاتجاه: فلكي تصبح بروتستانتياً في مجتمع يرتكز على الولاء الديني، كان يعني الذهاب قدر الإمكان تجاه التأكيد على حق اتباع الدليل الذي يمليه ضمير المرء وتفكيره.[٩] ويبقى إحساس الولاء للمدرسين والزملاء قوياً في هذه الجماعة. وأصبح هذا الإحساس أكثر قوة عن طريق تذكر أحداث معينة. وكان من تلك الأحداث واقعة مشهورة في الجامعة الأمريكية في بيروت، لأستاذ العلوم الطبيعية، وهو يلقي خطاب التخرج لعام ١٨٨٢، مؤيداً أفكار داروين، وقد تمّ إجباره على مغادرة الجامعة.[١٠] وقد قدّم بعض المدرسين الآخرين، يقودهم المبشر الطبي الشهير كورنيليوس فان ديك Cornelius Van Dyck، استقالتهم احتجاجاً على ذلك. كانت تلك المناسبة أول ظهور في اللغة العربية لتلك الوسيلة المألوفة لأهل الفكر، وهي رسالة احتجاج جماعية؛ إذ قامت شخصيات دمشقية بارزة، بقيادة المفتي محمود حمزة والأمير عبد القادر، بإرسال رسالة تقدير للدكتور فان ديك.[١١] وكانت وفاة بطرس البستاني عام ١٨٨٣ حادثة أخرى من هذا النوع؛ واستطاع أحدهم، بعد ستين سنة، وكان قد حضر جنازته أن يتذكر بوضوح علامات الحزن، ودموع فان ديك، وفصاحة أديب اسحق.[١٢]

يحتاج الكتّاب الجدد إلى رعاية من نوع ما، مهما حاولوا أن يتمتعوا بالاستقلالية. نجد أن الحكومة العثمانية قد قرظت معجم البستاني "محيط المحيط"، وقد التمس البستاني نفسه من مسؤولَيْن عثمانيَيْن رفيعَيْ المستوى مد يد العون له، وقد وعداه بذلك إلا أنهما لم يستطيعا الوفاء بوعدهما حتى صدور الجزء الأول. اتجه بعد ذلك إلى الخديوي إسماعيل، والذي استجاب على الفور، مدركاً قيمة عمل يدعم جهوده الخاصة لإظهار مصر إلى العالم الجديد كونها صنيعة أوروبا.[١٣] فقدّم عرضاً

ليحصل على ألف نسخة، وجاءت المساعدة المالية فيما بعد من اثنين من عناصر حاشيته، وهما ابنه توفيق ووزيره رياض.[١٤] وتضمنت مقدمات المجلّدات الشكر والتقدير لهذه المساعدة، ولكنها حملت أيضاً إشارات الولاء للسلطان مراد الخامس وخليفته عبد الحميد الثاني.[١٥]

ليس هناك عمل مرجعي يمكن أن يتسم بالحياد الكامل، يمكن أن يكون عمل المعجم عملاً أدبياً وأن يزعم معدُّ الموسوعة اشتمالها على كل ما هو ضروري أو مفيد من المعارف، إلا أنه لا بدّ أن يكون لها مبادؤها من حيث الانتقاء والترتيب. ولقد أشير إلى هذه الحاجة، والمشكلات التي تطرحها، من قبل كبار المؤلفين في القرن الثامن عشر. فمثلاً، تضمنت مقدمة الطبعة الأولى لموسوعة "بريتانيكا" هذه المشكلات وعبرت عنها بوضوح. وبينما تعتبر "طريقة نقل المعرفة وفقاً للترتيب الألفبائي" أمراً مفيداً بشكل واضح. إلاّ أنها تحمل خطراً: إذ إن "طريقة التعامل مع العلوم بطريقة مجزأة بحسب الاصطلاحات التقنية المتنوعة المشتركة لكل منها، تعتبر طريقة بغيضة لفكرة العلم بالذات، والذي هو سلسلة متصلة من الاستنتاجات المستخلصة من مبادئ واضحة بذاتها أو مكتشفة مسبقاً". هذه المبادئ يجب أن "توضع أمام [القارئ] في سلسلة واحدة غير مجزأة"، ويجب أن تكون السلسلة كاملة: "يجب أن تُعرض العلوم بشكل متكامل، وإلا فإنها تُعرض لهدف ضئيل".[١٦]

وعلى ذلك، شعر مصنفو الموسوعات بالحاجة إلى إعطاء نظرة عامة لنظام العلوم في علاقاتها بعضها مع بعض. وتعدُّ المقدّمات التفصيلية لأعمالهم من ضمن الأجزاء القيمّة الأكثر دواماً فيها: مثل "مقالة تمهيدية" لِـ "الموسوعة" الكبيرة لـ ديديرو Diderot ، التي تحتوي على نظام للعلوم يعتمد على نظرية معرفية، وتميز بين وظائف الذاكرة والعقل والخيال؛[١٧] وبعد ذلك بنحو خمسين سنة، كتب كولوريدج Coleridgeعملاً بعنوان "رسالة في الطريقة" يحاول فيها عرض العلاقات بين العلوم عن طريق إظهار كيفية نشأتها من عمل العقل الذي يفرض نظامه الخاص على ما يمكن معرفته.[١٨]

تحاول معظم الموسوعات، في ضوء مشاريع كهذه، أن تحافظ على نوع من التوازن بين المقالات العامة الطويلة، التي يتم فيها مسح شامل لمجال كامل، والمقالات الأقصر التي تعالج موضوعات محدودة. إلا أنه قد تنشأ هناك صعوبات: إذ يمكن استبعاد بعض أنواع من الموضوعات التي لا يمكن ربطها بسهولة مع مبادئ عامة. ففي الطبعة الأولى من "الموسوعة"، قُدّمت معلومات حول التاريخ والسيرة بشكل رئيس في مقالات عن الجغرافيا، والتي يمكن ربطها مع مبادئ عامة؛ ولا يوجد هناك مدخل مستقل لشكسبير، ولكن كُتب عنه في مقالة عن ستراتفورد، وهي بلدته الأصلية.[١٩]

لا تتضمن مقدمة "دائرة المعارف" وصفاً مفصلاً للعلوم، ولكنها تقدم بعض التلميحات لأهدافها؛ إذ تبدأ بما يمكن أن يبدو اليوم أنه أشياء مألوفة، ولكنها كانت في ذلك الوقت أفكاراً إرشادية لتغيير اجتماعي وثقافي: إذ تتنوع احتياجات الأمم بين كل زمان أو مكان وآخر؛ حيث لا تستطيع أن تُجاري متطلبات العصر الحديث بدون معرفة، وهي أساس التقدم الاقتصادي والاجتماعي، وأساس الإصلاح الفكري والأخلاقي؛ وبما أنَّ "أهل اللغة العربية" هم جيران البلدان المتحضّرة، فقد أصبحوا مدركين لحاجتهم للمعرفة. تهدف الموسوعة إلى الإيفاء بهذه الاحتياجات، والقيام بذلك بطريقة تنأى بها عن التحزّب وأن تكون موضع قبول من كل الجماعات الدينية.[٢٠] وتحتوي الموسوعة أيضاً على توضيح "لطريقة نقل المعرفة بالترتيب الأبجدي". كان قراء العربية أقل ألفة بهذا الأمر مما كان عليه الحال في أوروبا. إذ تمّ ترتيب خلاصة المعرفة لمرحلة العصور الوسطى، كما كان عند ابن قتيبة، بحسب الموضوع. ثم بدأت المعاجم بعد فترة تُرتّب بحسب الحروف الأولى، ليس لكل الكلمات بل إنما لجذورها. وتمّ ترتيب كتب السيرة كمعجم ياقوت الحموي بحسب الحروف الأولى للأسماء، وكانت هذه هي النماذج الأقرب التي حذى حذوها البستاني؛ إذ كانت نيته، في الواقع، أن يؤلّف معجماً للسير.

ما المعارف التي كان أهل اللغة العربية بحاجة لاكتسابها ؟ ينصب التركيز الرئيسي " لدائرة المعارف" على ثلاثة أنواع من الموضوعات: العلوم الحديثة

والتكنولوجيا، وتاريخ أوروبا، والتاريخ والأدب العربيين. كانت المقالات بالنسبة للمجالين الأول والثاني في معظم الأحيان، تُترجم أو تُلخّص أو تُقتبس من تلك الأعمال المكتوبة باللغة الإنكليزية أو الفرنسية. فلم يكن بالإمكان تجنب هذا الأمر بالنسبة لعمل ينتج بشكل سريع، ومكتوب - في معظم الأحيان - بواسطة خمسة أفراد من عائلة البستاني، على الرغم من وجود مقالة عَرَضية هنا أو هناك تُنسب إلى مؤلف آخر. (كانت الإيضاحات التي تظهر في نهاية كل مجلد ابتداءً من المجلد الرابع وما بعده يتم تزويدها بصور توضيحية من دار خارجية هي شركة آبيلتون آند كومباني الأمريكية Appleton and Company،[٢١] على الرغم من أنّه في المجلدات الثلاثة الأولى قام فنان محلي، هو ميخائيل فرح، بعمل الإيضاحات في النص) وكما أشار فليشير في مراجعته النقدية، فإنّ اختيار الموضوعات الخاصة بسير الأعلام، كان غريباً أحياناً، وكأنّ المؤلّفين في هذا المجال قد تجاوزوا حدود معرفتهم.[٢٢] وسواء كانت هذه المقالات أصيلة أم لا، فقد كُتبت بالأسلوب العرضي الواضح والبسيط حتى وإن لم يكن جميلاً، والذي استخدمه البستاني وجماعته لكي يعبّروا عن أفكار ومعرفة العالم الحديث بطريقة مفهومة لكل هؤلاء الذين كان باستطاعتهم القراءة.[٢٣]

توجد مفاجآت حتى في هذه الأجزاء من "دائرة المعارف". فقد نتوقع وصفاً للتلغراف، كونه أصبح معروفاً إذ ذاك، ولكن من المفاجئ ألا نجد ذكراً له بينما نجد وصفاً للهاتف في المجلد السادس، الذي نشر في عام ١٨٨٢، وذلك عَقب إصدار شهادة الاختراع الأولى للعالِم بيل Bell في عام ١٨٧٦، ودشّن أول تبادل هاتفي تجاري في الولايات المتحدة عام ١٨٧٩.[٢٤]

تكشف المقالات العديدة المخصّصة للتاريخ والأدب وعلم الأساطير اليونانية أيضاً عن قرار واضح لما هو مهم معرفته. قد لا يبدو هذا الأمر غريباً بالنظر إلى الصلة الوثيقة بين التقاليد العلمية العربية واليونانية، ولكن في الواقع فإنّ المقالات تتجاوز نطاق المعرفة المتوفرة للكتّاب العرب في عصر مبكّر. ويأتي ذكر الكتّاب اليونانيين من أمثال ثيميستوكليس Themisticles وثوسيديدس Thucydides وثيسيوس Theseus

وثيودوسيوس Theodosius وثيوفراستوس Theophrastus وثيوقريطس Theocritus يتبع بعضهم بعضاً في تتابع سريع: بينما واحد فقط من هؤلاء الستة قد يكون معروفاً لدى مسلمي العصور الوسطى.[٢٥] يتم تخصيص مقالة للكاتب هوميروس Homer بالإضافة إلى وصف لشخصه.[٢٦] ولم يكن قد ترجم إلى العربية قط حتى ذلك الوقت، ولكن أحد المحرّرين، وهو سليمان البستاني، كان قد ترجم الإلياذة بعد بضع سنين؛[٢٧] وهو طريق تمّ فتحه لكي يقود فيما بعد، وذلك بعد بضعة أجيال، إلى الاستخدام المألوف للأساطير اليونانية كرموز في الشعر العربي.[٢٨]

ربما كانت المقالات التي تناولت العلم والتكنولوجيا هي تلك المقالات التي أقبل عليها معظم القرّاء. ففي المقدّمات للمجلدين الثالث والرابع، كان على المحرّرين أن يعتذروا عن الواقع بأنّ ترتيب الأحرف في اللغة العربية جعل من الضروري تخصيص معظم أوّل مجلّدين للأسماء العربية المبتدئة بـ ابن و أبو.[٢٩] بالنسبة للقارئ المعاصر، على كل حال، فقد كانت المداخل عن الموضوعات العربية والإسلامية أكثر متعة. وبسبب اعتمادها – إلى حد كبير – على مصادر عربية، بما في ذلك مخطوطات غير منشورة، فقد عبّرت عن أحكام ونقاط مفضّلة لا تعكس بالضرورة تلك الموجودة في الدراسات الأوروبية في ذلك الوقت. قد تكون تلك المداخل التي تناولت الشعراء العرب، والتي تمّ ايضاحها باقتباسات عديدة، متوقعة من كُتّاب يعيشون في بيئة حيث كان التراث الشعري العربي يتم اكتشافه وتثمينه من جديد، ولكن شمول المقالات المتعلقة بالتاريخ والفكر الإسلامي ربما لم تكن متوقعة؛ إذ نجد، على سبيل المثال، خمس صفحات كُتبت عن أبي بكر[٣٠] (لم تكتب "دائرة المعارف" بهذا القدر عن محمد). أصبح الاهتمام بابن خلدون، الذي أشير إليه في أكثر من مقالة، أمراً شائعاً لدى الكتّاب الأوربيين والعرب والأتراك في تلك الحقبة، ولكن تُظهر مقالات أخرى وجهة نظر قد لا يشترك بها العلماء الأوروبيون في ذلك الوقت؛ فالمقالة المخصصة عن الحلاّج[٣١] كانت أشمل وأوسع من تلك التي يمكن لأي تصنيف أوروبي أن يتناوله بها وذلك قبل أبحاث ماسينيون؛ إذ أنّه في عام ١٩١٣، وحتى في "موسوعة الإسلام"

خُصّصت له صفحة واحدة ليس إلا ، على الرغم من أنّ كتاب ماسينيون كان معروفاً وأنّه تمّ الطلب منه شخصياً أن يقوم بالكتابة عنه.[٣٢]

نلاحظ أن المقالات التي دُبّجت عن شخصيات مثل حمزة بن عبد المطلب والحاكم بأمر الله[٣٣] كانت طويلة نوعاً ما. ويعود السبب في ذلك إلى العناية والاهتمام الخاص الذي يوليه أي كاتب أو قارئ لبناني عندما يتعلق الأمر بموضوعات تكون ذات صلة بأصول المعتقدات الدرزية. أمّا المقالات الأخرى التي تتناول التاريخ المحلي فهي كاملة ومتوازنة: كتلك التي كُتبت عن المدن (بيروت، دمشق، حلب، بغداد)، وكتلك التي كُتبت عن العائلات المحلية، التي تواصل تقليد كتابة التاريخ اللبناني، والتي ساهم البستاني فيها مسبقاً عندما ساعد في نشر كتاب طنوس شدياق بعنوان "أخبار الأعيان في جبل لبنان".[٣٤]

بالنسبة للمؤرّخ، ربمّا تُعدُّ المقالات الأكثر أهمية هي تلك المتعلقة بأفكار عامة بعينها. إذ إنها تعرض ملامح مميزة للكتابة العربية في تلك الحقبة، وهي محاولة لإيجاد صلة بين الأفكار التي استقيت من الغرب الحديث، وتلك المعروفة في التقليد العربي الإسلامي. تبدأ المقالة عن التاريخ باليونانيين، من هيرودوتس Herodotus وما بعده، وتصف تطور كتابة التاريخ الأوروبي، ومن ثمّ تتجه إلى إلقاء نظرة شاملة على أفكار ابن خلدون عن "فن التاريخ".[٣٥] أمّا المقالة عن الحق فتبدأ بتعريفات اقتبست من التفتازاني والجورجاني، ومن ثمّ تعرض وجهات نظر الفلاسفة المعاصرين.[٣٦] تعكس بعض المقالات في المجلّدات الأولى الحرية والتفاؤل النسبي في عصر الدستور العثماني. وقد نُشرت مقالة "الحكومة" في عام ١٨٨٣، وهي تحدّد أنواع الأنظمة كما عرّفها أرسطو (إذ لم يكن كتابه "السياسة" جزءاً من العرف الإسلامي الكلاسيكي)؛ وهي تزعم أنّه لم يكن لدى الممالك القديمة الحرية والمساواة الموجودة في الدول المتحضرة الحديثة، وذلك حيث تكون الحكومة مرتكزة على دستور (قانون أساسي) وبرلمان (مجلس النواب).[٣٧]

أمّا المقالة عن أوروبا فتسمّي تلك القارة "ثانية أصغر القارات، ولكنها القارة الأهم في تاريخ الحضارة".[٣٨] هذا ما تزعمه الموسوعة، إذ إنها تحاول جلب الحضارة الأوروبية ككل إلى اللغة العربية، وبهذا تأخذ "أهل اللغة العربية" وثقافتهم الموروثة إلى العالم الجديد الذي شكلّته أوروبا الحديثة. ويصبح التاريخ العربي والإسلامي جزءاً من التاريخ العالمي، ولا يصبح جزءاً مميّزاً بل جزءاً يجب التفكير والكتابة عنه بنفس الطريقة التي يكتب بها عن أي شيء آخر، ويتم الحكم عليه بنفس المعايير، وهي الحرية والتمدّن.[٣٩]

وهكذا فإنّ الموسوعة ترمز إلى انفتاح اللغة العربية على العالم الحديث، وانفتاح ثقافة العالم الحديث على الموضوعات العربية والإسلامية. إنّه أيضاً انفتاح بمعنى ثالث؛ فاللغة العربية، لدى البستانيين، ملك لكل من يتحدث بها ويستخدمها على حد سواء، وكذلك كل ما هو مُعبّر بها. وربما، وللمرة الأولى، يكتب المسيحيون الناطقون باللغة العربية عن موضوعات إسلامية بنفس نبرة الصوت التي يتحدثون بها عن آخرين. وهكذا تمثّل "دائرة المعارف" علامة في مرحلة من عملية حاولوا عن طريقها تبني التاريخ والثقافة الإسلامية على أنهما يعودان لهم وذلك بـ "دخول التاريخ العربي من أوسع أبوابه".[٤٠]

obeikandl.com